... صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ...

عندما تكون العلاقة الزوجية جحيماً لا تُطاق ، يعيش الزوج والزوجة والأولاد نكداً لا مثيل له ، أما عندما يرفرف فوق العشّ الزوجي رايات الرحمة والعطف والحنان، يكون ذلك منبعاً للسعادة والوئام ، مصداق ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها ، قالت: رجع إليّ رسول الله ﷺ ذات يومٍ من جنازةٍ بالبقيع وأنا أجد صُداعاً في رأسي ، وأنا أقول: وارأساه ، فقال: «ما ضرّكِ لو متِّ قبلي فغسَّلتكِ وكفّنتكِ ، ثم صلّيتُ عليكِ ودفنتكِ؟» ، فقلت: لكأني بك والله لو فعلت ذلك ، لقد رجعتَ إلىٰ بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك! فتبسّم رسول الله ﷺ ثم بُدئ في وجعه الذي مات فيه[1].

وبالفعل حدث ما لا يتمنّاه مسلم ، ولكنه القضاء والقدر ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشّاه ، فقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أباه ، فقال لها: «ليس علىٰ أبيك كربٌ بعد اليوم» ، فلما مات قالت: يا أبتاه! في جنّة الفردوس مأواه ، يا أبتاه! إلىٰ جبريل ننعاه.

فلما دُفن قالت: يا أنس! كيف طابت لكم أنفسكم أن تحثو التراب علىٰ وجه نبيّكم؟.

ثم توجّهت نحو القبر الشريف ، فأخذت قبضةً من ترابه فوضعته علىٰ عينيها وبكت وقالت:

ماذا علىٰ من شمّ تُربة أحمدٍ ... ألا يشُمّ مدىٰ الزمان غواليا

---

(١) سنن ابن ماجه: (١٤٦٥).

صُبّت عليّ مصائبٌ لو أنها صُبّت على الأيام عُدن لياليا[1]

وعندما أُشيع خبر انتقال الرسول ﷺ أُصيب الصحابة الأماجد بما لم يكن متوقّعاً ، فمنهم من أنكر ذلك ، ومنهم من هدّد وتوعّد ، ومنهم من أصابه الذّهول ، ومنهم من أغلق عليه باب بيته وراح يبكي ، وحُقّ لهم ذلك كله ، لكن الضابط للمسألة وصيّة الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، وذلك أثناء مرضه: «يا أيها الناس! أيّما أحدٍ من الناس أو المؤمنين أُصيب بمصيبةٍ فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري ، فإن أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبةٍ بعدي أشدّ عليه من مصيبتي»[2] .

أجل يا حبيبنا يا رسول الله!

نشهد أنكَ بلّغت الرسالة ، وأدّيت الأمانة ، ونصحتَ الأمة ، وجاهدتَ في سبيل الله حقّ جهاد ، فجزاك الله عنّا خير ما جزىٰ نبيّاً عن أمته ، وما لنا نحن إلا أن نردّد وراء الشاعر المحبّ ، وعيوننا تهطل دموعاً:

اصبر لكلّ مصيبةٍ وتجلّد واعلم بأنّ المرء غيرُ مخلّدِ
واصبر كما صبر الكرام فإنها نُوبٌ تنوبُ اليوم تُكشفُ في غدِ
وإذا أتتك مصيبةٌ تُشجىٰ بها فاذكر مُصابك بالنبيّ محمدِ

* * *

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٦٥ ، الشمائل للترمذي: ٣٧٩.

(٢) سنن ابن ماجه: (١٥٩٩).